

الوضع الصحي بالجزائر في أواخر العهد العثماني  
مداخلة الأستاذ : بن جبور محمد - قسم التاريخ - جامعة معسكر

1- إنتشار الأمراض والأوبئة:

لقد أجمعت الكتابات التاريخية أن الجزائر قد شهدت تدهورا اقتصاديا وتراجعا عمرانيا طيلة النصف الثاني من القرن السابع عشر (17م) والنصف الأول من القرن الثامن عشر (18م) بعد ذلك ساءت الأوضاع الإقتصادية وأقفرت الأرياف والمدن من سكانها وتكاثرت الأعراض والأوبئة الفتاكة مما أثر سلبا على حالة السكان الصحية والمعاشية وترك أثارا سيئة على أوضاعهم الإجتماعية[01].

إبتداء من أواخر القرن الثامن عشر (18م) تراجع عدد سكان المدن وتناقص سكان الأرياف مما تسبب في ضعف القوة العسكرية [02] أدى هذا الوضع إلى تناقص عدد التجار وقدرة الحرفيين والصناع وانعدام الأيدي العاملة في ميدان الزراعة. وتعود أسباب هذا التردى والتدهور الاجتماعي إلى انتقال العدوى وإنتشار الأمراض من الأقطار المجاورة بسبب صلة الجزائر ببلدان البحر الابيض المتوسط وانفتاحها على أقاليم السودان وعلاقتها التجارية مع أوروبا وارتباطها الروحي بالمشرق الإسلامي[03].

مما ساعد على إنتشار هذه الأمراض وتفشيها في البلاد انتشار المستنقعات بالسهول الساحلية وحول المدن الكبرى.

وقد أحصى لنا سعد الله صيدلية واحدة كانت موجودة بمدينة الجزائر والجزائر قاطبة، وكانت تعتمد على الأعشاب الطبيعية. وكان الأتراك يعتمدون على أطباء أجانب، واعتمدت المؤسسة العسكرية على طبيب جراح كان يسمى باش جراح أما الجزائريون فكانوا يتداون بالأعشاب، أو بالسحر والشعوذة في مداواة المرضى أو التمام والأحجية، والتقرب إلى الأولياء ومن بين هذه الأوبئة التي تفشت في أوساط المجتمع الجزائري :

الطاعون: لقد عد الطاعون من أخطر الأمراض التي عانى منها المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني، كما تعرضت إلى ضرباته الحادة كل العناصر الاجنبية المقيمة بالبلاد لقد تكرر ظهوره في شكل تواتر حلقات متعاقبة مع الأوبئة المستوطنة بالمنطقة تسببت في إنهيار ديمغرافي وأدت إلى تدهور الوضع الصحي الذي اثر بدوره سلبا على إقتصاديات البلاد تاركا تشوهات خطيرة في البيئة الإجتماعية[04]. لقد أضر الطاعون بالأوضاع الصحية للجزائر العثمانية وارتبط بالعوامل الأخرى التي أثرت على الوضع الصحي للسكان مثل الإضطرابات الجوية والتقلبات المناخية وفترات الجفاف والفيضانات بالإضافة إلى إجتياح الجراد وما نتج عنه من الزلازل والحرائق وما نتج عنها من دمار وخراب للمباني[05].

و مما زاد الأحوال الصحية سوءا أن الحكام العثمانيين لم يهتموا بميدان الصحة ولم يعطوها الأهمية التي تستحقها فمن ذلك أنهم ولم يتخذوا أي إجراء وقائي ضد انتشار هذه الأمراض [06]، أما أماكن العلاج فكانت محصورة حول بعض المصحات والملاجيء مثل زنقة الهواء وملجأ الأمراض العقلية المخصص للأتراك بالإضافة إلى مارستانات [07] رجال الدين المسحيين التي كانت تنفق عليها الدول الأوروبية [08] كما أن الباشاوات لم يهتموا بالجوانب الصحية من جهة ولم يفرضوا الحجر الصحي من جهة أخرى على الوافدين إلى الأيالة الجزائرية.

و الملاحظ أن الأوبئة كانت تتكرر كل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما وأنها في بعض الأحيان استمرت لوضع سنوات كما حدث خلال أعوام 1784-1798 كما مني القرن السابع عشر ( 17م) بانتشار الأوبئة في مختلف جهات البلاد مدة حوالي 39 سنة أما القرن الثامن عشر (18م) فقد ظهرت أثناء الأوبئة [09] من عام 1700م حتى عام 1799، ولقد أشارت بعض المصادر الفرنسية إلى عدة أنواع من الأمراض التي كانت منتشرة في الأيالة، كان في مقدمتها الطاعون، الكوليرا، التيفوس، الجذري، السل، ولقد تأصلت هذه الأمراض نظرا لانتشار المستنقعات بالمدن وانعدام القواعد الصحية، خاصة النقص الكبير في العقاقير، فالطاعون وحده كان يؤدي إلى هلاك من 300 إلى 400 نسمة في اليوم، فمن عام 1740م إلى عام 1743 م فتك بحوالي 10000 نسمة.

وبالنسبة لوباء عامي -1792 1798 فإنه أضر بجميع الجهات لاسيما وهران والجزائر وقسنطينة. وفي سنتي 1817-1818 انتشر الوباء في الجزائر وقضى على أكثر من 14000 [45].

و هكذا اصبح وباء الطاعون [10] من مظاهر البيئة الجزائرية فتكرر ظهوره بها باستمرار وقد كان مرتبطا بحركة الأسطول الجزائري وإحتكاكه الدائم بموانئ المشرق التي كان مصدرا لمختلف أوبئة الطاعون، حتى عدت الجزائر من مراكزه الدائمة وبيئاته المفضلة وهذا ما عبر عنه "بنزاك" « Panzac » بقوله: وباء الطاعون من الظواهر المستمرة والدائمة في الجزائر العثمانية « La peste est une constante de l'Algérie ottomane » [11]. علما بأن الأيالة كانت لها صلات وثيقة بالمناطق المجاورة التي كان يأتي منها الطلبة والحجاج والبحارة والتجار من تونس، طرابلس أو إفريقيا.

لقد اصبحت عدوى الطاعون تنتقل بسرعة في جميع جهات البلاد، ومسافة انتشاره قدرت بحوالي 200 إلى 400 كلم سنويا وقد يستغرق إنتقالها أحيانا أسابيع قليلة لإجتياح منطقة ما تبعا لشدته وللكتافة السكانية في المنطقة التي تتعرض له [12]. ومع بداية القرن السابع عشر ميلادي انتشر مرض الطاعون بسرعة مذهلة أضر كثيرا بالوضع الصحي للأيالة الجزائرية أكثر من المناطق المجاورة، كتونس ومراكش.

ومع حلول القرن الثامن عشر (18م) فقد تكرر وباء الطاعون وبلغ مجموع السنوات التي انتشر خلالها الطاعون أثناء هذا القرن 63 سنة في مدينة الجزائر وحدها خاصة من 1717 إلى 1758م، حيث انتقل إلى مناطق بعيدة كالقالة وعبابة وقدرت نسبة الوفيات في مدينة الجزائر، سنة 1740م ما بين 200 و400 وفاة يوميا.

ومن عام 1778 إلى 1804، انتشر وباء الطاعون في جميع الجهات وكان شديد الوطأة على السكان حيث أدى إلى تراجع كبير لعدد سكان الأيالة وبين سنوات 1805-1815، زاد في حدته حدوث المجاعات التي تعتبر آثارها الديمغرافية أخطر من بعض الحروب التي عاشتها البشرية.

لقد كانت أوبئة القرنين السابع عشر (17م) والثامن عشر (18م) أكثر حدة وشدة من التي اجتاحت الجزائر أثناء القرن السادس عشر (16م)، إذ تشير العديد من التقارير العسكرية والمراسلات القنصلية إلى استمرار "الوباء الفتاك" أو "الوباء الخطير جدا" [13] لفترات متعاقبة تناهز الواحدة منها 15 إلى 20 سنة وتعقبها عادة فترة خمود لا تتجاوز الست سنوات [14].

ب- الكوارث الطبيعية

1- الزلازل:

مع ازدياد وطأة وباء الطاعون وتفشيه في أرجاء الأيالة الجزائرية، كانت تتعرض لسلسلة من الهزات الأرضية العنيفة والشديدة والتي تسببت في تخریب وتحطيم بعض المدن، واسفر عنها في أحيان كثيرة خسائر في الأرواح والممتلكات كزلزال مدينتي الجزائر والمدية سنة 1632، والذي فتك باغلب سكان مدينة الجزائر، وزلزال عام 1665 والذي صاحبه خسوف الشمس وتأثرت به حتى السواحل الأوربية بالإضافة إلى زلزال 1676.

أهم الزلازل:

لقد تعرضت السواحل الجزائرية إلى عدة زلازل عنيفة وقوية خلفت عددي القتلى وخسائر جسيمة فمنها.

1- زلزال 1716: الذي تخربت من جرائه مدن شرشال وبجاية ومدينة الجزائر وتكررت نتيجة هزات إرتدادية طيلة أيام الثالث (3) والخامس (5) والسادس والعشرين (26) من شهر فبراير وقد هلك من سكان الجزائر تحت الأنقاض ما لا يقل عن 20000 نسمة حسب بعض المصادر [15].

نظرا لاشتداد حدة الزلازل اضطر الاهالي للخروج إلى ضواحي المدن ومنها ضواحي مدينة الجزائر بعد أن تهدمت منازلهم، مما جعل الداى يصر على معاينة اللصوص، والقضاء على أعمال الفوضى التي صاحبت هذه الزلازل ثم تكرر حدوث الزلازل بمدن مليانة وعبابة والجزائر أعوام 1723-1724 وتضررت شرشال



وتدهور الأوضاع الاجتماعية والسياسية، وبقيت مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية غير مستغلة وتحول جزء من هذه الملكيات إلى مؤسسة الأوقاف[22].

### 3- الجراد والجفاف:

مع ازدياد حدة الزلازل وانتشار الفيضانات شهدت الايالة الجزائرية آفات أخرى تمثلت في غزو الجراد وانتشار الجفاف مما أضر أيضا بضرر بالجزائر إبان العهد العثماني إجتماعيا وصحيا وإقتصاديا وتسبب في إختفاء الأوقات وهلاك كثير من السكان.

وفيما يخص سنوات زحف الجراد فمن أكثرها ضرر خلال أعوام فترة الدراسة 1710-1716-1724-1725-1760-1778-1779-1780.

وبالنسبة للسنوات التي عرفت فيها البلاد إنتشار الجفاف فكانت في الفترات الممتدة من 1734 إلى 1737 ومن عام 1778 إلى 1779 وكذلك سنة 1800 وأعوام 1800-1807-1816-1819[23].

### 4- المجاعات:

عاغشت الجزائر في أواخر العهد العثماني مجاعات انعكست آثارها سلبا على الوضع الإجتماعي والصحي والإقتصادي للبلاد منها مجاعة 1778 و1779م والتي قيل عنها أن الناس كانوا يموتون بالمئات في شوارع مدينتي الجزائر وقسنطينة[24] وكذلك الشأن بالنسبة لمجاعة 1787 و1789م التي كان من أسبابها الجراد مع الوباء ويمكن الإشارة إلى مجاعة 1794 التي اتسمت فيها الأوضاع بالتردي والفوضى وغلاء الأسعار وغياب الأوقات[25]. أدت إلى انتشار الفوضى وانعدام الأمن وتفشي النهب وغلاء الأسعار ومات الناس جوعا، حيث ذكرت المصادر التاريخية أنه في عام 1756م، مات أكثر من 1656 نسمة في مدينة الجزائر وقسنطينة.

وفي النهاية يمكن أن نذكر أنه هناك بعض المحاولات التي قام بها بعض الحكام الأتراك للاهتمام بالوضع الصحي وتحسينه في الايالة الجزائرية كمحاولة صالح الباي عام 1787 م والتي أراد بها منع انتشار وباء الطاعون، فأقام حزاما صحيا على مدينة عنابة، ومحاولة الباي عثمان عام 1794 م، والمتمثلة في بناء مستشفى وإقامة حزام صحي وفرق الحجر على السفن، كما سعى إلى استيراد القمح من أوروبا وتوزيعه على السكان مجانا، ومن بين إصلاحاته كذلك أنه قام بإلغاء الضرائب التي كانت مفروضة على الجزائريين.

### الهوامش والمراجع:

[01] سعيدوني ناصر الدين، نفسه.

[02] أوجاق أو " الوجاق": تعني بالتركية في الأوساط الجزائرية موقع النار أو الموقد، وهو إسم تنظيمي مستعار للجيش الإنكشاري العثماني ولقد تمردوا على البشوات في القرن السابع عشر (17م) واستولوا على السلطة الفعلية ولم يبق للبشوات سوى وجود رمزي كممثلين سامين للسلطان ولقد انتقلت هذه السلطة

الفعليّة إلى طائفّة الريّاس في أواخر القرن نفسه.  
[03] انتقلت إلى الجزائر مختلف الأمراض كالكوليرا « Le Cholera » والتيفوس « La Typhus »  
والجدري « La variolle » والطاعون « bubons La maladie »  
[04] سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق ص 124.  
[05] الفشاعي موساوي فلة: وباء الطاعون في الجزائر العثمانية، دوراته وسلم حدته وطرق انتقاله، مجلة  
دراسات إنسانية، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، عدد 1 سنة 2001 ص 134.  
[06] الفشاعي موساوي فلة: المرجع السابق من التفاصيل ينظر  
attitudes face au fléau et BOUBAKER Said : La Peste dans les pays du maghreb -  
impact sur les activités commerciales 16,18ème siècles In,R.H.M  
.ème année n° 79-80, mai 1995  
نظر أيضا

El Kachai MOUSSAOUI Fella : Situation sanitaire et démographique du Beylik de -  
Constantine 1791-1837 In, les actes du 7ème symposium international d'études  
ottomanes sur la société et l'état dans le monde ottoman publications fondation  
,Témimi : pour la recherche scientifique et l'information zaghouan Tunisie  
.Septembre 1998

[07] لم يفرض نظام الحجز الصحي لا على السفن ولا على الأشخاص باستثناء محاولة صالح باي  
،قسنطينة العام 1787 فرض حزام صحي حول عنابة ومنطقتها ليمنع إنتقال العدوى إلى مدينة قسنطينة.

[08] يقصد بها الأديرة، دير أو Monaster.

[09] سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق ص 125. [10] نفسه ص 126.

[11] نفسه ص 127.

[12] الفشاعي موساوي فلة: وباء الطاعون في الجزائر العثمانية دوراته وسلم حدته وطرق إنتقاله، المرجع  
السابق ص 136

Peters leuven, Panzac Daniel : la peste dans l'empire ottoman 1700-1850, ed [13]  
.1985, P212

[14] الفشاعي موساوي فلة: المرجع السابق ص 138.

[15] El Kachai MOUSSAOUI Fella : OPCIT, P68

[16] تشير إلى ذلك التعبيرات الآتية

- " نتج عن الوباء موت كثير حتى خلت المدن والقرى"

- " قحط عظيم ووباء مفرط"

- " وباء مات فيه خلق كثير"

- " مجاعة قحطت الجزائر قحطا عظيما"

- " وكان الوباء وقد إشتعلت ناره.....وقمت الضحى وصل ماية جنازة..."

- " وباء هلك فيه من الناس حتى عجزوا عن دفن أموات لهم"

- " خلت الدور وعمرت القبور"

- " الطواعين المتتالية هي استمرار للطاعون الأعظم وهي أقل فتاكة منه..."

- " وباء عظيم الحيوية الكبيرة أو القوية عام البروبو"

- " خلال طاعون 1786 أخلت البلاد وأفنت العباد"

- " القحط الشديد ومسغبة عامة"

- " الوباء جعل الناس يأكلون بعضهم بعضا"

- " عدد الموتى يزداد من يوم إلى آخر"

- " اثناء الطاعون الجارف خلت الديار والمنازل"

- " كان يدفن في الحفرة الواحدة المائة من الناس"

- الفشاعي موساوي فلة، المرجع السابق ص 136.

- ينظر مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، ص ص 144 -151، ينظر أيضا بلحميسي مولاي : الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر شون ت 1979 ص 39.
- OPCit P323 ,BOUBAKER Said : La peste dans les pays du maghreb [17] jusqu'au 1819 In 1552 Berbrugger: un mémoire sur la peste en Algérie depuis ..1847 xploration scientifique de l'Algérie , Paris imp Royale TII
- [18] سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق ص 128.
- [19] أهمها: Devoux: quelques tempêtes à Alger in R.A. T.15 1871, pp 339-352.
- [20] بسبب وقوع محوره بالقبير منها "الشبونة".
- [21] حول زلزال البليدة، ينظر مذكرات أحمد الشريف الزهار، ص 155.
- [22] بذل كل من حسان باشا (1563) ومحمد قوصة (1606) وشعبان الزنائي (1686) والباي إبراهيم (1687) عدة محاولات لإنقاذ وهران والمرسى الكبير وتحريرها من الإسبان وتحمس حتى الكتاب والشعراء فالهبوا حماس الناس بأشعارهم وفي العام 1707 حشد الباشا محمد بكداش جيشا جرار به المدينتين للتحرير الأول سنة 1708 واستبشر الناس وفرحوا، ولكن الإسبان احتلوها مرة أخرى لمدة حوالي 60 عاما أخرى ثم عزمت الجزائر وصممت على إزالة الفرحة الإسبانية من جسمها وحشد الباي محمد بن عثمان الكبير قوات عسكرية كبيرة وأجبر الإسبان على الجلاء عنهما بصفة نهائية العام 1792.
- [23] مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق ص 155.
- [24] سعيدوني ناصر الدين: ص 129، ينظر خريطة الزلازل في ملحق الدراسة
- [25] سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق ص 129.